جزيرة العرب

بلاد العرب أو جزيرة العرب كما تعرف عند علماء العرب هي الأراضي المحاطة ببحر الهند، والبحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، ثم دجلة والفرات[1]. أما علماء الفرنة فيجعلون النفود الشمالي الفاصل بين نجد الشمالية، وصحراء سوريا هو الحد الطبيعي لجزيرة العرب من الشمال.

يبلغ متوسط عرض الجزيرة ٧٠٠ميل، ومنتهى طولها ١٢٠٠ميل، وتزيد مساحتها عن مساحة الهند، وبلاد العرب من البلاد القليلة التي حافظت على تقاليدها وعاداتها وطرق معايشها منذ أقدم عصور التاريخ، وإن ما أنتابها من التغير لا يكاد يذكر.

وجزيرة العرب مشهورة بصحاريها الواسعة الواسسعة ورمالها التي يقصر الطرف عن مداها، وتشغل هذه الصحاري قسما كبيراً من مساحتها.

وأهم هذه الصحاري: الدهناء، النفود، الصحراء الجنوبية أو صحراء الربع الخالي، وهذه الصحاري وإن كانت رملية إلا أن تربة بعضها خصبة بحيث تصبح بعد الأمطار من أفضل المراعي للحيوان، وقد اخترقنا الدهناء بضع مرار من الشمال فقطعناها في ١٣ ساعة على الإبل، ومن جه ة الأحساء فقطناها في ست ساعات، كما أني قطعت النفود من بعض نواحيه من جنوب الزّلْفَى إلى شقراء وهو أشق من عبور الدهناء.

لقد اخترقت الجزيرة لأول مرة على الإبل في ١٩٢٣ في سبعة وثلاثين يوما: أربعة وعشرين يوماً من الكويت إلى الرياض وثلاث وعشرين يوماً من الرياض إلى مكة.

(١) يسميه العرب بحر الشام. ياقوت: جزيرة العرب، والقاموس: مادة جزر.

obeikandi.com

وقد كانت المسافة بين جدة ومكة تقطع في يوم على الحمير والبغال أما اليوم فتقطع في ساعة بعد تعبيد الطريق.

والطائرات تقطع الجزيرة من جدة على البحر الأحمر إلى الظهران على الخلية العربي في ثلاث ساعات.

وليست طبيعة التربة في الدهناء والنفود متجانسة من كل وجه، فهناك بعض الجهات لاترى فيها غير الرمال المرتفعة التي تكاد تبتلع المارة لنعومتها وعدم تماسكها، فيتجنبها المسافرون ابتغاء سلامة أرواحهم وأموالهم.

ويوجد ببلاد العرب هضام يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من ثمانية آلاف قدم في شمالي وجنوبي منطقة البحر الأحمر - مدين واليمن - أما قلب الجزيرة فالارتفاع فيه تدريجي - فمستوى البلاد في نجد يبلغ حوالي ٢٥٠٠ قدم. بينما يصل في بعض الجهات كأجا في الشمال إلى خمسة آلاف قدم، وفي نهاية الجنوب الشرقي توجد هضبة عالية يتكون منها الجبل الأخضر، وفي الوسط الشرقي يوجد مرتفع طويل يقابل الغرب يسمى جبل طويق، ويلغ ارتفاعه نحو ٦٠٠قدم.

الوديان

لايوجد في بلاد العرب أنهار بالمعنى المعروف، ولكن بعض مجار أو نهيرات صغيرة دائمة في عسير واليمن وجهات عدن والأحساء، وعمان ونجد، ووديان لا عداد لها مما تجري فيها المياه إبّان المطر وهي في الغالب طويلة وغير عميقة. وأطول هذ الوديان وادي الرمة الذي يبدأ قريباً من المدينة ويمر في القصيم، ثم إلى شط العرب. ووادي حنيفة الذي يبدأ من منحدرات جبل طويق الغربية إلى اتجاه الخليج العربي (وهو لا يصل إليه) فهذان الواديان يمكن أن يُعبر مجراهما أثناء فيضانهما الواطئ والمتوسط بدون صعوبة، وهما يحفظان الماء في باطن

مجراهما؛ حيث يمكن الوصول إليه بحفر آبار تختلف أعماقها باختلاف المكان، وفي بعض الأماكن كما في القصيم (وادي الرمة) والخرج ووادي حنيفة تعلو المياه سطح الأرض، وهناك تتكون سلسلة من الواحات.

أما الوديان التي تتجه نحو البحر الأحمر، فإنها ذات مجرى أعمق وأكثر انحداراً، وهي تكاد تكون معدومة النفع وهي عقبة في سبيل المرور من الشمال إلى الجنوب، وهي لاتكون واحات مثل مياه الأودية الأخرى بسبب ما تجلبه المياه في انحدارها من الأتربة وغيرها مما يتراكم بعضه فوق بعض بسرعة، بحيث لا تستطيع حرارة الشمس أن تؤثر في صلابته. ووديان غربي اليمن ومنطقة قسم البحر الأحمر من هذا النوع - من مدين إلى حضر موت.

المناطق الداخلية الخصبة

بين الصحاري المترامية الأطراف، وبين الأودية والمنحدرات توجد مناطق خصبة عامرة بالسكان، وتجود بقسط من حاجات السكان الضرورية وأهمها:

١- جبل شمر:

هو إلى جنوبي النفود الشمالية، وتنحدر إليه المياه من جبلي طي الشهيرين «أجا وسَلْمى» اللذين يمتدان من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي.

وتشغل مدينة حايل، ومدينة فَيْد[1] القديمة، وعدة قرى أخرى صغيرة وكبيرة في المنطقة المجاورة لسلسلتي الجبال.

٢- القصيم:

واقعة إلى مابعد المنحدرات في جنوبي جبل شَمَّر، فالقسم المنخفض ترجع

(١) انظر ياقوت.

خصوبته إلى المياه الموجودة في باطن الأرض باستمرا، وإلى المياه التي تفيض عليه أحياناً من وسط مجرى وادي الرُّمة. وتمتد منطقة القَصيم في خط يبلغ طوله أكثر من مائة ميل، تتخلله بعض ألْسِنة النفود فتفصله عن بعضه. وفي هذا الخط تقع أكبر مدينتين تجاريتين في قلب الجزيرة، وهما : عنيزة وبُرَيْدَة، وعدا هاتين المدينتين يوجد أكثر من خمسين بلدة كبيرة وصغيرة.

والقسم المرتفع غني بمراعيه الواسعة، ويعتمد على الآبار التي توجد في أكثر من أربعين بلدة.

وقد حفرت آبار كثيرة أرتوزية في القصيم سيكون لها أكبر الأثر في مستقبل القصم الزراعي.

٣- نجد:

وهذه بلا نزاع أكبر مجموعة من المناطق الخصبة، وتبلغ مساحتها بما في ذلك بعض المنحدرات أكثر من عشرة آلاف ميل، وهي تتكوّن من سلسلة مناطق واقعة عند أطراف جبل طويق، وتمتد سلسلة من البلدان والقرى من سُدير في الشمال وتنتهي في الجنوب إلى وادي الدواسر. ومجموعة المناطق الخصبة تحيط بها الدهناء شرقاً وجنوباً، والنفود، والمنحدرات من الشمال، ومنحدرات من الغرب. ومنطقة الخصوبة أوسع على جانب شاطئ البحر الأحمر وفي الجنوب الشرقي، ففي الشرق تجد أن هذه الحلقة رقيقة وتفصلها حواجز واسعة، فثلث شاطئ الخليج العربي من الكويت إلى القطيف أرض جرداء، وبعد ذلك تبدأ سلسلة عيون في الداخل حيث منطقة الأحساء؛ ولا يوجد على الشاطئ إلا مناطق صغيرة قليلة الخصوبة. ومن نقطة رأس الجبل تبدأ عمان التي تنحدر إليها المياه من مرتفعات الشاطئ الشرقي وجبال عمان غرباً، كما ينزل المطر فيها في

فصول معينة. كذلك الجبل الأخضر الممتد على الشاطئ تجاه رأس الحِدّ. وكذلك في المنطقة الواقعة شمالاً خلف شاطئ الباطنة توجد وديان خصبة وغنية وسلسلة عريضة من الأراضي الخصبة؛وفي الجنوب توجد الصحراء ممتدة على طول الشاطئ حتى رأس الحد. ولكن لما كانت الأرض تأخذ في الارتفاع تدريجياً خط تقسيم المياه الغربي، فإن وديااً وأرضاً خصبة تبدأ في الظهور ولكنها غير متصلة. وبعد عبور مدخل وادي حضر موت تأخذ الأرض الخصبة في الظهور بشكل منقطع.

ومن مدخل وادي حضر موت فصاعداً يعتبر القسم الغربي من شبه الجزيرة، ونجد أمامنا عندما ندور حول الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة منطقة ساحلية منخفضة خصبة في المواضع التي تنحدر منها الوديان من المرتفعات. ويوجد وراء هذه المرتفعات مرتفع خصب (صَنْعضا ٧٥٠٠ قدم) تكتنفه جبال عالية هي خط تقسيم المياه، وتمتد هذه المناطق الخصبة إلى ٢٠٠ميل من الشاطئ الغربي. ثم تأخذ المنحدرات تتالشى حتى تختفي في الربع الخالي. وهذه المنطقة هي ما كان يطلق عليها قديماً العربية السعيدة،والتي يطلق عليها الآن اسم اليمن، وعَدن والمَكُلاَّ من جهة، وعسير من جهة أخرى. وعلى أية حال فإن الخصوبة تنتهي عند مدينة الليث على شاطئ البحر الأحمر. ومن هذه النقطة شمالاً لا تشمل رياح المُونْسُون هذه المنطقة؛ ومن هنا تبدأ مناطق الواحات منفصة عن بعضها وعليها قوام حياة السكان. وفي بعض المنطقة الواقعة بين مكة والمدينة يوجد بعض مناطق خصبة صغيرة في باطن بعض الوديان، وإلى مائة ميل شمالاً من المدينة تنتهي سلسلة المناطق أو الواحات المنعزلة بمنطقة خير والعلا. أما بالنسبة للشاطئ من جدة فليس فيه إلا مداخل الوديان التي عند ما تنحدر فيها المياه وتتخلل باطن الأرض تمكن بعض السكان من حفر آبار للارتواء.

الجـــو

يعتبر الجـو في الجزيرة على العموم، ما عدا بعض نقط عـلى الشواطئ صالحاً للحـياة؛ - فـالحـرارة التي تشـتد نهـاراً والبـرودة التي تشـتد ليـلا تقـتل أغلب الميكروبات التي تحارب بتى الإنسان من جهات أخرى، والحياة على وجه العموم في الجـزيرة، وبالأخص في المناطق الخصـبة طويلة ، ولكن حـياة البـدو الرحل الذين يعيـشون على المنحـدرات شاقـة تقصر الأجل، وكـذلك الحال في هضـبة اليمن التي يبلغ ارتفاعها مابين ٧-٨ آلاف قدم.

والشيء الذي يميز الجـو في الجزيرة هو الجفـاف، فإن بلاد العرب واقـعة بين البحـار. ومع هذا فليس لهـا أي أثر في جو الجـزيرة، وتستـفيد اليـمن من رياح المونسون في الصيف وينزل في عـمان قدر كاف من الأمطار بينما المنطقـة الواقعة إلى غربي خط تقسيم المياه لاينزل فيها المطر إلا نداراً.

أما باقي الأقـسام فـإني أكبرها حظا من المـطر النفود الشمـالي وجبل شـمر، فالأمطار تهطل في الشتاء، وكذا رياح البـحر الأبيض المتوسط تسبب المطر فتنبت أعشاب الربيع. وأمـا الصحراء الجنوبية فـربما لا يصيبها الرذاذ سـاعة واحدة كل ثلاث أو أربع ساعات.

ومن ظواهر الجو أيضاً في الجزيرة الحرارة: فالنصف الجنوبي من الجزيرة تبلغ الحرارة فيه نهايتـها في شهري يوليو وأغسطس. أما تأثيرها فـي الإنسان فيختلف تبعاً لارتفاع المنطقة متى يعيش فيها.

وأشد المناطق حرارة شاطئ عمان وتهامة اليمن، ولكن الجو في شاطئ الخليج العربي والمحيط الهندي شديد الرطوبة.

السكان

عددهم - الحضر والبدو

لم يعمل إحصاء للسكان في الجزيرة العربية فكل تقدير للسكان فهو تقدير تخميني، ولا أظن أن عدد السكان يتجاوز السبعة ملايين الآن فهنالك مساحات واسعة لاتكاد ترى فيها ساكناً.

وإن الهجرة المتتالية من قديم الزمان إلى العراق وسوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وغيرها من بلا دالعالم جعل سكان الجزيرة لا يكادون يزيدون عن خمسة ملايين في منطقة البحر الأحمر من مدين إلى اليمن، ومليون ونصف في المنطقة الجنوبية والساحل البحري، بما في ذلك حضر موت وعمان وثلاثة ونصف في وسط الجزيرة.

الحضر

إن كثرة ارتحال القبائل وغزواتها العديدة، ترك عند الناس فكرة خاطئة عن عدم وجود مدن وبلاد في جزيرة العرب ومناطق زراعية، وكثير من الناس لايعلم بوجود مدن سوى مكة والمدينة وجدة وصنعاء.

إن المناطق الساحلية في الجنوب الشرقي والجنوب الغربي من الجزيرة أراض زراعية آهلة بالقرى والمدن، والأهالي يشتغلون بالزراعة والتجارة، ويوجد علاوة على ذلك مستعمرات أو واحات عديدة في وسط الجزيرة، يتجاوز سكان الواحدة منها سبعة آلاف نسمة، وهذا عدا الأماكن الأخرى المبعثرة المملوءة بالسكان. ومما لاشك فيه أن حياة الحضر في داخل الجزيرة متأثرة إلى درجة ما بحياة البدو الرحل لاتصال الفريقين في كثير من المرافق، فإن الفريقين كثيراً ما

openkandil.com

يتصلان بالمصاهرة والتجارة.

والحضر تختلف طباعهم باختلاف المناطق التي يعيشون فيها، وظروف الحياة التي تحيط بهم، فأهل حايل أقرب مظهراً إلى البداوة ، وأهل مكة والمدينة واليمن العالية أبعد مظهراً عن البداوة من البلاد الأخرى العربية، وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض، لأنهم كثيرو الأسفار، كثيرو الاختلاط والتعامل مع البلاد الأخرى كالشام وفلسطين ومصر، ولذا فترى موظفي ديوان الملك المكلفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم أو حايل أو الحجاز.

وأهل الرياض أرق بكثير من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا بلادهم، ولم يعرفوا شيئاً عن أحوال العالم الخارجي.

والحضر في تنافس وتفاخر دائم، فأهل القصيم يفضلون أنفسهم على سائر سكان نجد بالعلم والمعرفة وسماحة الخلق والإحاطة بأحوال العالم. وأهل العارض يفضلون أنفسهم بالشجاعة والصبر على المكاره والمحافظة على شمائل العرب وأنهم جند التوحيد الموالون لزهله في أوقات الشدة.

وأهل البحرين يفاخرون أهل الكويت بكرمهم فيقولون: إذا حضر عندنا الكويتي دعوناه وذبحنا له ولم نقبل له عذراً؛ ودعونا معه أصدقاءه ومعارفه. أما الكويتي فإذا قابلك في بلده قال لك مرحباً! متى الوصول؟ كيف حالك؟ في أمان ا ! ثم انصرف. وإذا لم يجد مفرّاً من الدعوة لروابط العمل والصداقة المتينة فإنه يدعوك ويشتري اللحم من السوق، أي لايذبح لك الخروف .

وأهل الكويت من جهة أخرى يرمون أهل البحرين بالبساطة؛ وحضر نجد وبدوهم ينالون من أهل الكويت والأحساء والبحرين، ويقولون لقد أضاعوا مفاخر العرب، لا يعرفون الخيل والجمال ولا الكر ولا الفر، ولا يحسنون إلا

قيادة السفن.

والحضر يعيب بعضهم بعضاً بلهجاتهم، وربما كانوا مجمعين على النيل من لهجة أهل الأحساء والبحرين لما فيها من الرخاوة والميل إلى الامالة.

ويغلب على الحضر الخلق التجاري، وبعض الجهات يمتاز عن بعض في هذا الخلق، فأهل القصيم والزلفي وشقرا أنشط من أهل نجد في التجارة، فقووافلهم تقصد سائر الجهات العربية، وتجارهم كثيراً ما يسافرون إلى الهند ومصر في سبيل التجارة، والتجار النجديون المعروفون في الهند ومصر والعراق من أهل هذه البلاد. أما أهل الكويت فنشاطهم في التجارة البحرية، وقد كانت لهم أساطيل بحرية في الماضي لنقل الحاصلات العربية إلى الهند وبعض سواحل الخليج العربي وجلب السلع الهندية والأوربية إلى بلاد العرب؛ وقد قضت السفن البخارية على هذه الأساطيل وقللت من أهميتها، ومع ذلك فلا تزال للكويت بعض السفن تنقل عليها تمر العراق إلى الهند، وتأتي من الهند حاملة الأرز وأدات السفن وسائر الحاجيات الأخرى. أما في فصل الصيف فتكاد السفن تقتصر على الغوص لاستخراج اللؤلؤ.

ويمرّن الحضر أولادهم على التجارة من الصغر: يمنح الوالد ابنه الصغير مبلغاً من المال للتعامل به تحت إشراف أبيه وإرشاده، وكثيراً ما يشارك الوالد ابنه في بعض السلع التي يراها رابحة، فيشب الفتى وقد مرن على الأعمال التجارية وشعر بكثير من المسئوليات ووقف على الطرق التي تدر عليه النقود وعرف المشقات والصعوبات التي قد تعترض التاجر والتي عاناها أهلوهم، فإذا مات رب العائلة حل محله ابنه الذي لم يصبح غريباً في محيطه الجديد.

ويغلب على حضَر الجزيرة - وعلى الأخص أهل الخليج العربي - التعاون

التـجاري سـواء بين الأهالي بعـضهم مع بعـض أو بين الأمراء والأهالي، فـمن التعاون المألوف في الكويت أن يـدع تجار اللؤلؤ نفودهم بعد بيعـه عند أصدقائهم في التجارة لاستثـماره على مسئوليتهم الخاصـة. وحكام الكويت الذين عرفتهم الشيخ أحـمد والشيخ الحـالي، كما أعلم، له مـبالغ طائلة عند رعاياه التـجار لا يتقـاضى من ورائها ربحـاً أو فائدة، وقـد كان حكام البـحرين كإخـوانهم حكام الكويت عندما كانت يدهم مطلقة في شئـون البحرين الداخلية والمالية . ،وحكام نجد وقطر لهم مثل هذه الأيادي على رعاياهم البدو.

أما البـدو فهم القبـائل الرحل المتنقلون من جهـة إلى أخرى طلبـاً للمرعى أو الماء، والطبيعة هي التي تجبر البدوي على المحافظة على هذه الحياة.

وحياة البـدوي حياة شاقـة مضنية، ولكنه وهو متـمتع بأكبر قـسط من الحرية يفضلها عن أي حياة مدنية أخرى.

هذه الحيـاة الخشنة هي التي جعلت القبـائل يتقاتلون في سـبيل المرعى والماء، وهي التي جعلت سوء الـظن يغلب على طباعهم، فالبدوي يـنظر إلى غيره نظرة العدو الذي يحاول أخذ ما بيده أو حرمانه من المرعى.

إن البدوي في الصحراى لا يهمه إلا المطر والمرعى، فأزمتـه الحقيقية انحباس المطر وقلة المـرعى، ولا يبـالي بما يصـيب العـالـم في الخـارج مـا دامت أرضـه مخضرة، وبعيره سميناً وغنمه قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحماً.

أما إذا نمـا السكان وضاقت بهم الأرض أو لم تجـد أراضيـهم بالمرعى، فليس هناك سبيل إلا الزحف والقـتال، أو الهجرة إن كان هنالك سبـيل إليها، وكذلك القبيلة التي غلب على أمرها وحـرمت من مراعيها وأراضيها، ليس أمـامها سبيل آخر سوى الهجرة، وهذا يفسر الهجرة من وقت لآخر إلى العراق وسوريا ومصر

واستعمار الجزء الشمالي الغربي من أفريقيا، وتدفق شمر إلى مابين النهرين، وقبائل عنزة إلى الحمَاد، فكلها نتيجة تغلّب غيرهم عليهم من القبائل ، واضطرارهم إلى ترك أراضيهم التي لم يعد لهم سبيل في الإقامة بها لضيق وسائل الحياة.

ومن الحوادث البارزة في القرون الأولى، والتي تشبه مايجري في بلاد العرب من وقت لآخر إغارة الساميين على بابل، والكنعانيين على سوريا، والهكسوس على مصر والعبرانيين على فلسطين.

لقد كان البدو قبل أربعين سنة في أوائل هذا القرن في غرات وحروب مستمرة، كل قبيلة تنتهز الفرص للإغارة على جارتها لنهب مالها، وتعدد الإمارات وتشاحن الأمراء وتخاصمهم مما يشجع البدوي.

ولهذا كان للعصبية قيمتها في بلاد العرب- فالإنسان يقوى بأبنائه وأبناء عمومته الأقربين والأبعدين، وإذا كانت العصبية ضعيفة أمكن تقوية القبيلة بالتحالف مع سواها حتى يقوى الفريقان ويأمنا شر غيرهما من القبائل القوية.

وقد جرى العرف أن القبائل تعتبر الأرض التي اعتادت رعيها؛ والمياه التي اعتادت أن تردها ملكا لها، لا تسمح لغيرها من القبائل الأخرى بالدنو منها إلا بإذنها ورضاها، كثيراً ما تأنس إحدى القبائل من نفسها القوة فتهجم بلا سابق إنذار على قيلة أخرى، وتنتزع منها مراعيها ومياهها.

إن قبائل العرب ليسوا كلهم سواء في الشر والتعدي على السابلة والقوافل، فبعضها قد اشتهر أمره بالكرم والسماحة والترفع عن الدنايا، كما اشتهر بعضها بالتعدي وسفك الدماء بلا سبب سوى الطمع فيما في أيدي الناس.

خيام بدوية في الصحراء

obeikandl.com

ومع أن الدين الإسلامي أبطل كثيراً من العصبيات القديمة وأحل محلها الأخوة في الدين (لا تجد قوماً يؤمنون با واليوم الآخر يوادون من حادَّ ا ورسوله ولو كانو آباءهم وإخوانهم أو عشيرتهم) فقد عادت العصبيات بشرورها في بلاد العرب مرة أخرى. والفضل الآن في استتباب الأمن والضرب على أيدي المفسدين يرجع إلى المرحوم الملك عبدالعزيز وسهره وإقامة أحكام الشريعة، وسرعة تنفيذها. وقد جرى الملك سعود على سنة أبيه في ذلك.

ليس للبدوي قيمة حربية تذكر؛ ولذا كان اعتماد الأمراء على الحضر، فهم الذين يصمدون للقتال ويصبرون على بلائه وبلوائه. وكثيراً ما كان البدو شراً على الأمير والمصاحبين له، فإن ذلك الأمير إذا ما بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب؛ ويحتجون بأنهم هم أولى من الأعداء المحاربين، ولقد جرى كثير مثل هذا في الحرب العالمية الأولى في العراق مما كان يندهش له الضباط الإنجليز، لزنهم لم يعرفوا أن صديقاً ينهب صديقاً؛ ولكن البادية لا تعرف شيئاً غير النهب والسلب، وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء والبدوي لا يرى حياة أسعد من حياة الصحراء، ويرى الحاضرة حبساً لحريته وتنقله حيث يريد، كما أن أهل الحاضرة يرون البداوة شقاء لا يعادلها شقاء، ويصفون البدو بأنهم جفاة غلاظ القلوب.

والبدوي إذا لم يجد سلطة تردعه أو تضرب على يده يرى من حقه نهب الغاد والرائح، فالحق عنده هو القوة يخضع لها، ويخضع غيره بها. على أن لهؤلاء قواعد للبادية معتبرة عندهم كقوانين يجب احترامها، فالقوافل التي تمر بأرض قبيلة وليس معها من يحميها من أفراد هذه القبيلة معرضة للنهب، ولذا فقد اعتادت القوافل قديماً أن يصحبها عدد غير قليل من القبائل التي ستمر بأرضها، ويسمون هذا رفيقاً.

والبدوي يحتقر الحضري مهما أكرمه، كما أن الحضري يحتقر البدوي، فإذا وصف البدوي الحضري فإنه في الغاب يقول: حُضيري تصغيراً لشأنه.

ومن عادة البدوي الاستفهام عن كل شيء وانتقاد ما يراه مخالفاً لذوقه أو لعادته بكل صراحة فإذا مررت بالبدوي في الصحراء استوقفك وسألك من أين أنت قادم؟ وعمن وراءك من المشايخ والحكام؟ وعن المياه التي مررت بها؟ وعن أخبار الأمطار والمراعي؟ وعن أسعار الأغذية والقهوة[1]؟ وعمن في البلد من القبائل؟ وعن العلاقات السياسية بين الحكام بعضهم وبعض.

ومع أن البدو قد اعتادوا النهب والسلب، فإنهم كثيراً ما يعفون عن أهل العلم خوفاً من غضب الله عليهم، وبعض البدو لا يحلف كاذباً مهما كانت النتيجة.

لقد شاهدت كثيراً من القضايا في الأحساء وغيرها كان البدوي ينكر إذا وجد مجالا للإنكار، ويفلت بمهارة من الإجابة عما يسأل، ولكن إذا وجه له اليمين وكان لا مفر له اعترف بجرمه إذا كان مذنباً ولا يحلف با كاذباً، وهذا أمر يدعو إلى الغرابة والإكبار أيضاً، فإنه يدل على شعور عميق بالخوف من ا ، وإن هذا الشعور إذا أحيط بالعناية والرعاية، فإنه ربما يوجه إلى الخير، أو على الأقل إلى الإقلاع عن الشر.

وقبائل نجد على العموم لا يزال فيهم الكثير من الصفات الطيبة التي اشتهر بها العرب الأقدمون: يعرفون حقوق الصحبة والرفقة ويثمر معهم عمل المعروف، فلا تسمع في نجد أن جمالا قتل رفيقه في السفر كما اعتاد الناس أن يسمعوا في الحجاز وليس أعدل من البدوي في تقسيم الغنيمة حتى قد يتلفون الشيء تحريا

(١) القهوة: البن.

للعدل يقسمون السجادة بينهم كما يقسمون القميص أو السروال، كل هذا إرضاء لضمائرهم ودفعاً للظلم. إنهم يعرفون الخيام حق المعرفة لأنها بيوتهم التي يعيشون فيها، ومع ذلك فهم يقسمونها مراعاة للعدل - أما الإبل والغنم فإنهم يقسمونها إذا أمكن القسمة، أو يقومونها بثمن إذا لم يكن هنالك سبيل للقسمة.

والبدو لا يفهمون الحياة حق الفهم كما يفهمها الحضري، لا يفهمون البيوت وهندستها، ولا يفهمون فائدة الأبواب والنوافذ الخشبية، حتى إن البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين في الثورة العربية كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف نزع خشب النوافذ والأبواب، لا لبيعها والانتفاع بثمنها بل لا ستعمالها وقوداً إما للقهوة أو الطبخ أو التدفئة، وبدو نجد قد فعلوا مثل ذلك تماماً، فعندما أسكنت الحكومة بعض القبائل ثكنة جرول، اكتشفت الحكومة أن النوافذ الخشبية والأبواب تنقص بالتدريج، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة فأخرجهم جلالة الملك توا من الثكنة وأسكن الحضر فيها، والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه جهلة البدو عن النوافذ والأبواب - وقد وجدت ما يشبه ذلك في صحراء ليبيا .

وللبدو مهارة عظيمة في اقتفاء الأثر، وكثيراً ما كانت هذه المعرفة سبباً في اكتشاف كثير من الجرائم، ولاتكاد تخلو قبيلة من طائفة منهم، وأشهر القبائل براعة قبائل آلمرَّة، ولهم قصص كثيرة لاتخلو من المبالغة، فإنهم يزعمون أن الخبير له من الخبرة ما يمكنه من المعرفة الذكر والأنثى، والبكر والثيب، والحامل وغيرها.

والقبائل العريقة المشهورة من حضر وبادية تحافظ على أنسابها تمام المحافظة وتحرص عليها كل الحرص، فلا تصاهر إلا من يصاويها في النسب، والقبائل

المشكوك في نسبها لا يصاهرها أحد من القبائل المعروفة.

أما حكام العرب فيترفعون عن سائر الناس حضرهم وبدوهم، لايزوجون بناتهم إلا لقرباهم. أما هم فيتزوجون ممن يشاءون، وطبقات الحكام يترفع بعضها عن بعض : الأشراف يرون أنفسهم أرفع الخلق بنسبهم، وآل سعود يرون أنفسهم أرفع من الأشراف، وأرفع من سواهم من حكام العرب الآخرين، ومع أن العرب المحفوظة أنسابهم كلهم أكفاء لبعض، فلا تزال أمثال هذه العادات متأصلة في البادية أكثر من الحاضرة.

وهنا ترى للروح الصحيحة البدوية التي لا تملك شروى نقير ترفض الزواج من غنى لأنه ابن صانع أو أنه من سلالة العبيد، أو لأن نسبه القبلي يحوطه شيء من الشك، فسلطان المال لا قيمة له عند العرب. ومع وجود هذه الروح الارستقراطية التي تتجلى فقط في الزواج ورياسة القبيلة والحكم، فإنه لا يكاد يوجد فارق في طرق المعيشة الأخرى، فالفرد وشيخ القبيلة والأمير يأكلون جميعاً الأرز واللحم واللبن والتمر، ويلبسون جميعاً الثوب والعباءة والعقال والقُتَر (الكوفية)، ويتمتع أفرادهم بحرية لا حد لها، فالبدوي يقف أمام الحاكم فيجادل في سبيل حقه) ويستعمل كل الأساليب التي يراها موصلة إلى ما يريد.

التقسيمات الإدارية

يجمع العرب وحدة اللغة والدين والنسب أيضاً، وهم إن اختلفوا في بعض العوائد وفي نظام المعيشة، فهنالك صفات عامة وسجايا تكون مميزة للشعب العربي.

لقد اصطلح القدماء على تقسيم البلاد العربية إلى خمس ولايات أو مناطق: الحجاز . نجد . اليمن. وتهامة . اليمامج. . . ولكن حدود هذه الولايات موضع اختلاف الباحثين بين القدماء؛ وكما قدمنا أن العرب بالرغم من تعدد إماراتهم وتنازعهم فيما بينهم، فإن هذا كله لا يقضى على مابين الشعب العربي من مميزات الوحدة ولا سيما اللغة والدين وكثيراً من الصفات الأخرى .

أما الحوادث التي سنعرض لها فهي خاصة بالحجاز ونجد وملحقاتهما، أو ما يطلق عليه اليوم البلاد العربية السعودية، والكوَيْت والبحرين على الخليج العربي. والحوادث التي وقعت في هذه البلاد في الخمسين سنة الأخيرة هي أهم الحوادث في التاريخ العربي الحديث، فقد غيرت الحالة العربية عما كانت عليه تماماً قبل الحرب العامة الأولى، وأوجد للعرب شخصية دولية محترمة يرعاها الآن الملك سعود بعد والده العظيم المرحوم الملك عبدالعزيز.

لقد تطور عرب الجزيرة بدوا وحضرا تطورا عظيماً بعد اكتشاف البترول. تطوروا في حياتهم المنزلية والاجتماعية. استعملوا السيارات والطيارات بدل الإبل واتصلوا بالعالم الخارجي بواسطة الراديو وانتشرت الكتابة والقراءة بإنشاء المدارس في مختلف الجهات على أنه بالرغم من هذا التغيير العظيم فلا تزال البلاد تحتفظ بكثير من التقاليد العربية والإسلامية.

الحجاز

يقع الحجاز في جزيرة العرب في ناحيتها الشمالية والغربية، وهو يمتدّ من معان ماراً برأس خليج العقبة[1] إلى نقطة بين اللّيث والقُنْفُذَة على شاطئ البحر الأحمر.

أما حدوده من الجهة الشرقية فلم تكن معرفة تماماً؛ بل كانت تمتد وتتقلص تبعاً لقوة الأتراك والأشراف، ومبلغ سيطرتها على البلاد.

وفي البادية يطلقون الحجاز على المنطقة الجنوبية للطائف، فإذا قالوا : إن هذا البدوي حجازي، يعنون أنه من جنوبي الطائف، وهذه التسمية لها وجه؛ فإن جبال السرَّاة الممتدة من اليمن إلى الشمال هي حجاز، بمعنى أنها فاصلة بين الغَوْر وهو تهامة ونجد.

والمساحة التقريبية للحجاز تبلغ زهاء ٧٠٠ ميل طولا (من الشمال للجنوب) و ٢٥٠ ميلا عرضاً (من الشرق للغرب).

طبيعة البلاد

تتكون الحجاز من عدة مناطق طبيعية محاذية بعضها البعض وهي :

١- المنطقة الساحلية: الممتدة بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر (تهامة)، وتحفها شعاب مرجانية.

(١) في الحرب الحجازية الأخيرة ضمت العقبة ومعان إلى شرقي الأردن، ولكن الحكومة العربية السعودية لم تعترف بهذا الضم، واتفقت مع الحكومة البريطانية صاحبة الانتداب على شرقي الأردن على حل هذه المشكلة بالمفاوضات السياسية.
ولم تثر الحكومة العربية السعودية موضوع العقبة وعمان بعد إعلان استقلال الأردن فإن وجود إسرائيل كاف لازالة أي خلاف بين العرب فإن خطر إسرائيل مهدد للجميع على السواء.

٢- منطقة جبلية عالية : تأخذ في الانخفاض التدريجي حتى تصل إلى مابين جدة ومكة، إذ لا يزيد ارتفاعها هنالك عن أَلْفَىْ قدم.

٣- منطقة نجدية: (واقعة بين جبال) مرتفعة جداً في الشمال؛ ومغطاة بالحُممِ (السائل البركاني) من العُوَيْرِض، ولكنها تأخذ في الانخفاض في اتجاهها للجنوب؛ فيصل ارتفاعها في غربي مكة والطائف إلى نحو ألف قدم.

٤- الأخدود الرئيسي : الأجزاء المرتفعة منه مغطاة بالحُمَمِ كما هو الحال في الخرمة العُوَيْرِض، خَيْبَرَ (٦٠٠٠ - ٨٠٠٠)، ولكنه لا يزال محتفظاً بارتفاع لايقل عن خمسة آلاف قدم خلف مكة.

٥- المنطقة الأخيرة: وهي أعلى حافة المنحدر الشرقي في اتجاه قلب الجزيرة، ففي المنطقة الأولى والثالثة تقع المدن الآهلة بالسكان، فميناء العقبة والمُوَيلِح، والوجه، وأملُج، ويَنبُع، ورابغ، وجدة، واللبث واقعة في المنطقة الأولى، والعلا، والمدينة ومكة واقعة في المنطقة الثالثة.

ويوجد في الحجاز واحات خصبة متفرقة هنا وهناك، وهي على الأغلب واقعة على خط بين المنطقة الرابعة والخامسة، ومنها الحائط، والحُوَيط فَدَكَ وخيبر والحِناكيّةِ، والطائف، ووادي فاطمة (مرِّ الظهران)، والصفراء.

الجو

إن كميات المطر التي تنزل في الحجاز قليلة وغير كافية بالمرة؛ ولهذا فإنه يكاد جميعه يكون قاحلاً؛ إلا حيث توجد الواحات. وفي الطائف بخاصة في الجنوب لا توجد أمطار دورية تنزل فيه، كما هو الحال في عسير واليمن.

ودرجة الحرارة في أجزاء الحجاز الواطئة أخف منها في تهامة اليمن؛

ومتوسطها هو من ٨٠-٩٠ ف، والهواء رطب، ونظراً لأن مكة منخفضة الارتفاع (٧٠٠ - ٨٥٠ قدما) ومحاطة بمرتفعات صخرية جرداء؛ فإنها شديدة الحر صيفاً، بخلاف المدينة؛ فإن درجة الحرارة فيها لاتزيد عن ٧٠ وهي بلد صحي.

والطائف أحسن بلاد الحجاز قاطبة، جاف الهواء - والمرتفعات فيما وراء مكة والطائف جوها بارد.

السكان

يمكن تقدير عدد سكان الحجاز: بدو وحضر بمليونين؛ ثلثهم يشتغلون بالزراعة أو يقيمون بالمدن، والثلثان قبائل متنقلة.

التجارة والصناعة

تكاد تنحصر التجارة في الحجاز فيما يحتاجه القاصدون للبلاد المقدسة من الحاجيات، وكلها ترد إلى الحجاز من الخارج. ويصدر الحجاز بعض حاصلات من التمر والجلود والحناء والصمغ ولكنها قليلة جداً بالنسبة للواردات.

وترد البضائع من كل الجهات إلى مكة التي تعتبر أهم مركز تجاري في قلب الجزيرة؛ نظراً لموقعها الجغرافي والديني.

وتعتبر جدة لقربها من مكة أهم موانئ الحجاز. وفي غير موسم الحج تشتغل جدة بالتجارة مع سوريا والهند ومصر؛ وأفريقيا وبريطانيا، وممالك جنوب أوربا. وإلى جدة يصل أكبر عدد من الحجاج، ومنها يقضون أغلب ما يلزمهم في سفرهم إلى مكة .

وشركات البواخر التي تمر بميناء جدة في الوقت الحالي هي شركة مصر

للملاحة البحرية، والخديوية، والإيطـالية؛ وهنالك شركات أخرى تمر بواخرها كلما مست الحاجة.

ينبع :

هي الميناء الثانية للحجاز، ومنها يصدر للداخل جزء غير قليل من التجارة مع أواسط الجزيرة. وهي الميناء الطبيعية للمدينة المنورة وما جاورها، وتمر على الميناء البواخر السابقة .

المدينة :

وتسـمى طيبـة أيضاً ، هي العـاصمـة الأولى للمسلمين في عـهد الـرسول وخلفـائه الثلاثة، وهي مـعقل الإسـلام، وبها قبـر النبيﷺ ، ولمنزلتهـا الدينية ومركزها في الحركة الإسلامية الأولى فضلها بعض العلماء على مكة.

تبعد المديـنة عن ينبع ١٣٠ ميلا، وعن مكة ٣٠٠ ميل تقطع بالإبـل في عشرة أيام، وبالسيـارة في نحو ثلاثين ساعة وتقـطع المسافة بين جدة والمدينة في سـاعة وربع بالطائرة.

يبلغ طول المدينة ميلاً واحداً، وهي قسمان : المدينة القديمة ويحيط بها سور، وهي في الشمـال الشرقي، والبلدة الحديثة، وتَفْـصِل المناخةُ بينهمـا، وللمدينة خمسة أبواب .

والمدينة محـاطة بالمزارع من جهـاتها الأربع إلا الجهـة الغربيـة، وتمتد المزارع حولها إلى عدة أميال، بها عين الزرقاء، منبعها من قُبَاء على ميلين من المدينة.

يبلغ سكان المدينة عـشرين ألفاً ، وقد بـلغ سكانها قبل الحـرب العظمى بعد اتصال السكة الحديدية بـها ٨٠ ألفاً ، ولكن مصائب الحـروب أقفرت المدينة من

السكان ومن العمران. وبالمدينة كثير من قبور الصحابة وآل البيت، وأئمة الحديث والفقة؛ وقد كان مشيداً على قبور هؤلاء القباب والمباني، فهدمتها الحكومة الحالية في السنة الأولى من فتح الحجاز سنة ١٣٤٤هـ - سنة ١٩٢٦. تنفيذا لوصايا الرسول وأوامره بتسوية القبور، ولقد أثار هذا العمل ثائرة المتعصبين للقبور، ولكن الحكومة لم تأبه لاحتجاجاتهم، ولقد عرض كثير من الأمراء والجمعيات الإسلامية في الهند وغيرها استعداداهم لإرجاع القباب وبناء القبور، ولكن الحكومة في سبيل رضاء ا رفضت جميع الاقتراحات الخاصة بهذا الموضوع.

مسجد الرسول:

هو أهم ما في المدينة من المساجد، وقد بنى على عهد الرسولﷺ باللبن، وسقفه الجريد؛ وعمده جذوع النخل، وقد كانت مساحته سبعين ذراعاً في ستين، وزاد فيه عمر ، وبناه على بنيانه في عهد النبي باللبن والجريد وأعاد عمده جذوعاً؛ ثم غيّره فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقُصّة (أي الجص)، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقّفه بالساج، وامتدت الزيادة حتى دخلت فيه بيروت أزواج النبي، ومنها بيت عائشة الذي دفن فيه النبي وصاحباه، فبنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد.

وزاد فيه الوليد بن عبد الملك من ٨٨-٩١هـ، والمهدي (سنة١٦٦هـ) من جهة الشمال، والمأمون (سنة٢٠٢)، وفي سن ٦٥٤هـ احترق المسجد، فاهتم الخليفة العباسي المعتصم با بن المنتصر با ، فبدأ تجديد المسجد سنة ٦٥٥هـ.

ومازال المسجد موضع عناية ملوك وأمراء المسلمين بناءً وترميماً وتجديداً. والبناء الحالي هو بناء السلطان عبد المجيد العثماني، بدأ بناءه سنة ١٢٦٥هـ

منظر المسجد النبوي من خارج المدينة

obeikandl.com

القسم الجديد من المسجد النبوي

obeikandl.com

وانتهى البناء سنة ١٢٧٧هـ؛ وهو بناء بديع جمع بين الفن والجمال، وهو يفضل بناء المسجد الحرام بمكة كثيراً؛ وقد حدث بالبناء الحالي تصدّع ، فاهتم المرحوم الملك عبدالعزيز بالأمر وأمر أن يعاد بناؤه على نفقته الخاصة كما أمر الملك سعود بتوسعته، وقد تمت التوسعة والبناء في أكتوبر سنة ١٩٥٥م (ربيع الأول سنة ١٣٧٥)، وافتتح البناء الجديد الملك سعود في حفل عظيم، داعا إليه علماء المسلمين وزعماءهم من مختلف الأقطار والأمصار.

ولقد كان بالحجرة النبوية والمسجد الحرام كثير من الهدايا الثمينة، تقدّر بثلاثة ملايين من الجنيهات، نقلها قائد المدينة فخرى باشا إلى الآستانة خشية أن تقع في أيدي الملك حسين.

وفي مباحثات مؤتمر لوزان طلب اللورد كروان بالنيابة عن الملك حسين رد الأمانات التي وضع الأتراك يدهم عليها؛ ولكن الأتراك أجابوا بأن هذه المسألة من المسائل الإسلامية الخاصة بالمسلمين.

ولم نعرف أن الملك حسيناً بعد ذلك دخل في مفاوضات مع الأتراك لاسترداد هذه الأمانات الخاصة بالحرم النبوي والمهداة إليه من ملوك المسلمين.

الأقاليم الشمالية

ينحصر هذا القسم الواقع في شمال الحجاز ما بين خط العرض ٣٠شمالا، وهو قسم جبلي، لا يقم به من السكان إلا نفر قليل ممن يعيشون في أكواخ صغيرة، وخط سكة الحديد الحجازية المار في هذا القسم لايوجد به مدن في المحطات الواقعة عليه، فمن معان إلى دار الحَمْرَاء (٢٥٠ ميلاً تقريبا) لايوجد فيه مدينة أو قرية إلا في تبوك، فإن بها نحواً من ٨٠٠ ساكن.

صورة

obeikandl.com

والساحل في هذا الجزاء عبارة عن أرض منبسطة يبلغ عرضها من ٧ أميال إلى ١٥ ميـلا، وليس به مزروعات إلا في فم الوديان؛ ولكـن به بعض الآبار القديمة التي كان يِردُها حجاج مصر قديماً.

وأهم المدن والقرى هي :

١- العقبة:

تقع على الشاطئ الشرقي من خليج العقبة، قريباً من رأس الخليج الذي يشبه نصف دائرة قطرها ثلاثة أميـال، وبها قلعة قديمة على شكل مـربع، وهي تحتوي على ١٠٠ منزل، وبها بساتين ومزارع نخيل.

٢- المويْلح :

قريج وقلعة على بعـد ١٦٠ ميلا إلى الجنوب، وبها سوق للحـبوب، ونحو مائة عـائلة يسكنون الأكواخ، وبها بسـاتين ومزارع نخيل، وميـاهها من الآبار. ومن المويلح توجد طريق قوافل لتبوك وللمدينة المنورة.

٣ - ضُبَا :

تقع إلى جنوب المويْلح وهي المحل الرئيسي لقبيلة الحُويْطات، اتخذا الاتراك قديماً مركز دفاع عن الشاطئ . بها آبار ومزارع نخيل.

المنطقة الوسطى

(١) إيها ينسب صاحب سيرة ابن هشام.

obeikandl.com

منظر من مناظر الحرم النبوي التي شيدت حديثاً

obeikandl.com

يقع ضمن هذا الجزء جـميع البلاد الواقعة بين خطي عـرض ٥٧ْ و ٢٤ْ شمالا ويمتد هذا الجزء نحو مائتي ميل وجميع الوديان ومجاري المياه في هذه المنطقة تنفذ إلى البحـر الأحمر بواسطة منفـذ واحد، وهو وادي الحَمض الذي يقع فـمه إلى جنوبي الوجه بثلاثين ميلا. وواي الحمض نفـسه ينحدر إلى البحر من العُوَيْرِ ض وخيبر. والبلاد الرئيسية في هذه المنطقة هي :

الوجه :

وهي بلدة صغـيرة تحتوي على بضـعة بيوت مـبنية من الحجر، سكانهـا نحو ثلاثة آلاف نسمة، بها قلعة وسوق، ومياهها تميل إلى الملوحة.

أُمْلُج :

قرية بها نحو مائة منزل، بها قلعة صغيرة، وأمامها تقع جزيرة حَسَّان التي من رملها يصنع الزجاج، بها مزارع نخيل، ومنها تمتد طريق في الداخل إلى اصطبل عَنتَـر، إحدى مـحطات سكة حديـد الحجـاز (١٢٠ميـلا)؛ وإلى المدينة المنورة (١٤٠ميلا) والأراضي هنا خصبة وبخـاصة في وادي عين الواقع إلى شمال جبل رَضْوَى .

ينبع البحر :

مبنيـة على سهل واقع بين البـحر والجبل، وهي مـسورة من جـهة الداخل؛ بيوتها مبنيـة من الحجر الجيري، سكانها نحو ٥٠٠٠ نسمـة، والمسافة بينها وبين المدينة تقطع بالـسيـارة في ست سـاعات، ويجلب إليـهـا الماء من مـياه تسـمى المُسَيْحلِى تبعـد عن البلدة نحو أربع ساعات. وقد أنشأت الحكـومة الحالية (كنْد انْساَ) لتقطيـر المياه من البحر محافـظة على صحة الحجاج وتوفيـر وسائل الراحة

لهم.

وفي ضواحيها كان الاجتماع التاريخي ١٩٤٥ بين المرحوم الملك عبدالعزيز وبين ملك مصر السابق فاروق .

وقد أهملت ينبع في العشرين سنية الأخيرة فهجرها كثير من سكانها، ولكن عناية الحكومة قد شملتها في السنوات الأخيرة، فعُبد الطريق الموصل للمدينة كما اعتزمت الحكومة إنشاء ميناء عصري لتسهيل وصول السفن إليها، وهكذا تعود الحياة إليها مرة أخرى .

ينبع النخيل:

هي واحة نخيل مياهها كثيرة، وهي مقر عرب جهينة وحَرْب، ويتبعها نحو عشرين قرية آهلة بالسكان.

العَلاَ:

تقع في شمال سكة حديد الحجاز وسكانها نحو ٣٠٠٠ نسمة، والبلدة نفسها صغيرة وضيقة؛ ولكن الواحة تمتد حولها إلى ثلاثة أميال، وبها نهير صغير درجة حرارة المياه فيه ٩٢ ف. ومحاصيلها كثيرة يشتريها البدو الرّحل في الشمال، وبها بساتين قليلة.

خيبر:

هي قرية أو مجموعة قرى في واحة تسمى باسمها. واقعة في حرة على مرتفع يبلغ ٢٨٠٠قدم فوق سطح البحر، وهي على بعد ستين ميلاً من شمالي المدينة المنورة.

والبلدة نفسها تـقع في وادي زَيْدِيّة أكبر وديان خيبر. وبها قلـعة قديمة تسمى الحصن، وبها عيون ما ءجارية كثيرة.

وخيبر اسم مـشهور من قديم في الإسلام؛ فقد وقعت يهـا معارك. وسكانها ٣٠٠٠ نسمة أكثرهم مولدون، والعرب لا يحبون الإقامة فيها خوف الحمى.

والواحة غير صحية، وقد كانت خيبر موطن اليهود في صدر الإسلام.

القسم الجنوبي

يمتد هذا القـسم من خط عرض ٢٤ْ إلى خط عرض ٢٠ْ شـمالا حيث تبـتدئ حدود عسير من هذا الخط. وأهم مدنه.

رابغ:

وهي عبارة عن مجموعة من البيوت الصغيرة، ولكن بها مزارع نخيل واسعة تمتد في الداخل إلى بضعة أميال.

جُدَّة:

هي مـدينة كـانت مسـورة. ولكن سـورها قـد أزيل واتصلت البلدة القـديمة بالمباني الجديدة التي زاد عددها عن دور المدينة القديمة. وتقع ميناؤها في منتصف طول البحر الأحـمر تقريباً، وهي ميناء مكة، والمسافـة بينهما خمسـة وخمسون ميلاً؛ ويبلغ سكانها الآن نحو مائة وخمسين ألفا.

أسس جدة الخليفة الثالث عثمان. ومدخلها خطر على السفن لكثرة الشعوب الموجودة فيها ،وقد شيدت الحكومة السعـودية مرفأ حديثاً للبواخر زودته بجميع الآلات الحديثة لتفريغ السفن بسرعة.

وكان بجدة قبر ينسب إلى حواء أم البشر، وقد كان الحجاج زيورون هذا القبر ويتبركون به، كما أن أهل جدة أنفسهم كانوا يقصدون هذا المكان للتعظيم، وقد هدمت الحكومة الحاضرة القبة الموضوعة على القبر الموضوعة على القبر، كما أزالت البنيان الذي على القبر، ومنعت الناس من التمسح به أو إتيان أي عمل لايتفق مع الشريعة الإسلامية.

ولقد زار العلامة ابن جبير الأندلسي جدة في حجة (سنة ٥٧٩هـ) فذكر بعض آثار جدة، ومنها الموضع الذي شيد عليه «قبة عتيقة» يقال إن كان منزل حواء أم البشر عند توجهها إلى مكة، ولم يذكر ابن بطوطة شيئاً عن قبة حواء عند مروره بجدة في طريقه إلى اليمن (سنة ٧٣٠هـ) ولم نقف على تاريخ تشييد القبة، وعلى كل حال فليس هنالك حجة تاريخية على صحة هذه النسبة.

ويحيط بجدة قرى صغيرة في الجنوب والشمال، وأكثرها مؤلف من بيوت صغيرة أو أكواخ يسكنها البدو، والجمالون وكثير من الزنوج.

وجدة ليس بها نهر أو عين لشرب السكان، ولكن بها آبار كثيرة خارج البلد، يملك أكثرها الأشراف والأهالي، وهي تملأ بماء الأمطار؛ كما أن البيوت بها صهاريج تملأ بماء ينحدر إليها من سقوف البيوت، وهذه المياه غير صحية؛ ولذا فقد كان الأغنياء يجلبون ماءهم من الآبار البعيدة .

وقد شيدت الحكومة التركية آلة على البحر لاستخلاص الماء الحلو؛ فساعد أهل جدة والأوربيين المقيمين بها على الحصول على ماء صحي نقي؛ وقد اشترت الحكومة السعودية في سنة ١٩٢٦ ماكينتني كبيرتين لهذه الغاية بالنظر إلى قدم العهد على الآلة الأولى، فتوفرت المياه العذبة للسكان وللحجاج؛ وقد مدت الحكومة الحاضرة الماء من وادي فاطمة إلى جدة في أنابيب ويسرت على السكان

أمـرا كان عـائقـا في زيادة السكان، وقـد ازدادت حركـة البناء زيادة تدعـو إلى الدهشة، كـما زينت أكثـر البيوت بالحدائق الغنـاء، وإذا كانت السيدة زبيـدة قد خلدت اسمها بالعين المشـهورة فإن المرحوم الملك عبد العزيز قـد خلد اسمه بهذا العـمل الجليل. وقد كـانت جـدة في القرن الماضي مـركـزاً تجاريا هامـاً، تجلب البضائع إليـها من الهند وغيرها؛ ومنها توزع على بلاد العـرب ومصر والسودان وغيرها، ولكـن شأنها ضعف بعد أن وضـع محمد علي باشا يـده على الحجاز، وفتح السويس للتجارة. وقد أضعف شأنهـا كثيراً فتح ميناء بور سودان، فأصبح هو الميناء الأول في البحـر الأحمر. ولكن جـدة بعد وصول الماء إليهـا وبعد بناء المرفأ قد عاد إليها نشاطها وكثر مرور البواخر بها.

مكة :

وتسمى بكة وأم القـرى، أشهر مدن الحـجاز، بها بيت ا والمسجـد الحرام؛ وتقع مكة في واد ضـيق عميق يتـجه شمـالا مع ميل قليل إلى الشـرق، والتلال المحيـطة به ترتفع إلى مئـات من الأقدام، وتحـيط بالوادي إحاطة كـاملة، أغنت السكان والأمـراء عن بناء سـور لحمـايتهـا؛ وقد شـيـدت عدة ضـواح شمـالي مكة. يبلغ سكانها نحو ٢٠٠ ألف نفس، وقد عمل إحصاء لمكة (سنة ١٣٥١هـ - ٩٣٢م) ولكن النسـاء [١] لم يدخلن فـي هذا الإحـصـاء ، ويبلـغ السكان الآن حوالي الـثلاثمائـة ألف، وهو إحصاء تـقريبي على حـال. وجو مكة حـار جداً وجاف ولكنه صحي.

(١) وتذكرنا حوادث استـثناء النساء من الإحصاء بما حاولته إدارة الصـحة من وجوب الكشف على الأموات قبل الدفن، فاجتج أهل مكة على سريان هذا القانون على النساء وساعدهم علماء نجد على رأيهم فلم تستطع الحكومـة تعميم الكشف، واضطرت أخـيراً لاستخدام بعـض السيدات الملمات بأصول الطب لهذا الغرض وبعض الأغراض الأخرى الخاصة بالسيدات.

وأهم ما في مكة من المباني والآثار: الكعبة المشرفة، والمسجد الحرام.

فالكعبة أو بيت ا أو البيت العتيق، بناء مربع تقريباً، بنى في أوسع نقطة من الوادي، والآن يحيط بها المسجد، والمسجد من حيث السعة والبناء والجمال والفن المعماري لايفوق غيره من المساجد الأخرى الموجودة في الشرق، ولكن الاحترام والتقديس إنما هو للكعبة.

يبلغ ارتفاع الكعبة ١٥ متراً ، وطول جدارها الشماي ٩,٩٢ متراً، والجنوبي ١٠,٢٥متراً، والغربي ١٢,٢٥ متراً ، والشرقي ٨٨ و ١١، وفي الجدار الشرقي بابها، ويرتفع عن الأرض مقدار مترين وعتبته مصفحة بصفائح الفضة، وكذلك مصراعا الباب، إلا أن صفائحه الفضية مطلية بالذهب.

ويلاصق جدار الكعبة من أسفلها بناء من الرخام، يسمى بالشاذروان، أقيم تقوية للجدران، وهو محيط بها من جميع جوانبها، ولايعلم بالضبط متى بدئ البناء على أصل الشاذروان، وقد جدد البناء عليه مراراً؛ وفي الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج الحجر الأسود، وهو مبدأ الطواف، ويرتفع عن الأرض متراً ونصفاً ، وهو كاسمه أسود، وقل عمل على غطاء من الفضة (سنة ١٢٩٠هـ) بسبب التشقق الذي حدث فيه؛ وقد قال سيدنا عمر في تقبيل الحجر: إنك حجر لاتضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول ا يقبّلك ماقبلتك.

أما تريخ تشييد الكعبة والغرض الأساسي من بنائها، فإنه يشغل قسما هاما من التعاليم الإسلامية، والتاريخ العربي والديني؛ غير أن الروايات الكثيرة التي وردت في ذلك يحتاج أكثرها إلى بحث علمي دقيق؛ فإن الروايات الخاصة بهذا الموضوع كثيرة ومتناقضة، وبعضها لا يتفق مع قواعد العلم[١].

(١) مقدمة ابن خلدون.

منظر من مناظر جدة القديمة

obeikandl.com

إذ أن المكان الذي شيدت عليه الكعبة قد أرجعه الرواة إلى آدم أبي البشر، ومع أن هذا لا يستند إلى خبر صحيح، فإنه يدل على أن بناء الكعبة قديم يرجع إلى ماقبل التاريخ.

والتاريخ الحقيقي للكعبة يبتدئ من عصر إبراهيم عليه السلام، وسنلخص فيما يلي ما رواه البخاري لما له من المركز الممتاز عند مؤرخي المسلمين وللدقة التي كان يتوخاها في تمحيص الروايات:

قال البخاري : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس في مكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء؛ ثم قفل إبراهيم منطلقاً ، فتبعته أم إسماعيل، فقالت يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولاشيء؟ وقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت : آ أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عن دالثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال: (ربنا إني أسكنْتُ من دريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم) حتى بلغ (يشكرون) . وجعلت أم إسماعيل ترضعِ اسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجلعت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر : هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحدا ؛ فهبطت الواي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات؛ فلذلك سعى الناس بينهما، فلما أشرفت على المروة سمعت

يوم غسيل الكعبة المشرفة

obeikandl.com

صوتاً، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث يعقبه أو قال يجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه[1]، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بع دما تغرف، فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتاً يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن ا لا يضيع أهله. وكان اليت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ من يمينه وشماله. فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء[1]، فنزلوا في أسفل مكة، وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربيةمنهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، ثم طلقها وتزوج من أخرى، ثم جاء إبراهيم وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة من زمزم، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد. ثم قال: يا إسماعيل! إن ا أمرني أن أبني ها هانا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة ما حولها، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان : ربنا تقبَّلْ منا إنك أنت السميع العليم.

(*) ولما بنيا القواعد وبلغا مكان الركن، طلب إبراهيم من ابنه حجراً فأظهر كسله، فانطلق إبراهيم يطلب الحجر، فجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض من ياقوتة بيضاء، وكان آدم هبط به من الجنة فاسودّ من خطايا الناس.

(١) أي تجعل موضعاً يجتمع فيه الماء.
(٢) جبل بأعلى مكة.
(*) هذه الزيادة ليست من رواية البخاري، وإنما ذكرها المؤرخون والمفسرون، وهي با لشك أشبه بالأساطير. (صحيح مسلم)

وقد همت قريش ببناء الكعبة سنة أن بلغ رسول ا خمساً وثلاثين سنة، ولكنهم كانوا يهابون هدمها، وإنما كانت رضما فوق القامة، فزرادوا رفعها وتسقيفها، فلما أجمعوا أرهم في هدمها وبنيانها، قام ابن وهب أو أبو وهب بن مخزوم، أو الميغرة بن مخزوم، وقال : يا معشر قريش ! لا تدخلوا في بنيانها في كسبكم إلا طيباً، ولا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

فأخذت قريش تجمع الحجارة كل قبيلة على حدتها، حتى بلغ البنيان الحجر الأسود، فاختصموا فيه : كل قبيلة ترد أن تمتاز بهذا الشرف، حتى كاد الأمر يفضي بهم إلى القتال، وأخيراً أشار عليهم أبو أمية ابن الميغرة أن يتركوا لفصل في هذا النزاع إلى أول داخل من الباب، فكان أول داخل رسول ا ﷺ، قالوا : هذا الأمين رضينا، هذا محمد !

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قالﷺ : هلم إليَّ ثوبا، فأتى به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوه حتى إذا بلغوا موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه.

ولم تزل الكعبة على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد ا بن الزبير، وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصر ابن الزبير في مكة ورماها بالمنجنيق، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض، وبناها على قواعد إبرايهم، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة عن رسول ا ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان. وقد أراد هارون الرشيد أو أبوه المهدي ردها إلى بناء عبدا ابن الزبير، فاستفتوا الإمام مالكا في

ذلك ، فقال: يا أميـر المؤمنين، لاتجعل كعبة ا ملعبـة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلى هدمها، فترك ذلك الرشيد.

وقد عـملت ترميـمات عديدة في أيام الخلفـاء العبـاسيين، وسلاطين مـصر المماليك، وسلاطين آل عثمان، بسبب السيول والأمطار، وتجد في داخل الكعبة وخارجها ما يشير إلى ذلك.

وتغسل الكعـبة من الداخل مـرتين في السنة : في رجب وذي الحجـة؛ يقوم بهذا العمل الشيخ الشـيَّسْبِي سادن الكعبة؛ ويدعو لحـضور هذا العمل الذي يعد من حفـلات مكة الهامـة حكام البلد وأعـيانها، وبـعض البارزين من الحـجاج، ويزدحم الناس حـول الكعبـة في ذلك اليـوم ازدحامـاً يد على ذلك الأثر الديني العميق في النفـوس، على أن هناك بعض أشياء تحدث من العامة وغـير الواقفين على العقيدة الإسلامية الصحيـحة، من شرب ماء الغسيل والاغتسال به، ولكن الجهل آفة كل شيء ؛ وقد حضرت هذا الاحتفال مراراً أثناء إقامتي بالحجاز.

ويجمع الشيخ الـسيسْبى ماء الغـسيل ويضعه في قوارير يهـديها مع المكانس للحكام وكبـار الحجاج ، وتكسى الكعـبة كل سنة؛ وليس من موضـوع الكتاب التوسع في وصف الكسـوة وتاريخها في الجاهليـة والإسلام، فقد أفـردت كتب كثيرة في العربية واللغات الأخرى في وصف مكة والمدينة وكل مايتعلق بهما.

مقام إبراهيم:

لا يعلم بالضبط هل موضع المـقام الحالي هو موضعه الأصلي أو كـان ملصقاً بجدار الكعبة، ثم نقل إلى وضعه الحالي.

فبعض الرواة يرجـحون أن المقام كان ملصقاً بجـدار الكعبة، ونقل من مكانه

في خلافة عمر؛ وروى الأزرقي أن موضعه الحالي هو موضعه في الجاهلية وفي عهد أبي بكر وعمر، إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر، فجعل في وجه الكعبة، إلا أن عمر رده إلى موضعه بمحضر من الناس؟ ويذكر ابن جبير أن الذي صرفه إلى موضعه الحالي هو النبي ﷺ.

والناس يصلون خلف مقام إبراهيم ركعتين بعد الانتهاء من الطواف ، وكثير من الحجاج مَن يقبِّل الحجر المسمى مقام إبراهيم ويتبرك به، حتى المنتسبين إلى العلم منهمج؛ فالرحالة ابن جبير الأندلسي الذي حج في (٥٧٩هـ) يذكر مقام إبراهيم ويصفه ويقول : عاياناه وتبركنا بلمسه وتقبيله وصب لنا في أثر القدمين المباركين ماء زمزم فشربناه نفعنا الله به.

ولقد فعل فعلته السيد السنوسي سنة ١٣٤٤هـ - صنة ١٩٢٥م، فقامت عليه قيامة الإخوان النجديين ونهره الملك عبد العزيز ابن السعود على فعلته رحمه ا ، لأن الملك عبد العزيز في سبيل التوحيد والأمر بالمعروف لا يراعى أحداً؛ فإن مبدأه الدين قبل كل شئ، ورضاه ا مقام على رضا ءالخق.

المسجد الحرام:

إن ساحة البيت تهو المسجد كان فضاء للطائفين، ولم يكن عليه جدر أيام النبي ﷺ، وأبى بكر من بعده، ثم كثر الناس فاشترى عمر دور هدمها وزادها في المسجد، وأدار عليها جداراً دون القامة، وفعل مثل ذلك عثمان، ثم ابن الزبير، ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعُمُد الرخام، ثم زاد فيه المنصور، وابنه المهدي؛ ومازال المسجد موضع عناية الحكام والملوك والسلاطين من عباسين ومماليك وأتراك وعرب وغيرهم، يتولونه بالتعمير والترميم من وقت لآخر كلما مست الحاجة إلى ذلك .

بئر زمزم:

قد تقدم في قصة بناء الكعبة أن الملك فجرها لإسماعيل بعقبه، وقد طمرها الحارث ابن مضاض، وجدّدها عبدالمطلب جد النبي ﷺ؛ ويروون في ذلك قصة تشبه القصص الأخرى التي تروى عن أمثال هذه الأماكن التي لها ما لزمزم من الاحترام في نفوس الناس. ويقولون : إن عبد المطلب رأى رؤيا منامية[1]، فسمع هاتفاً يهتف في أذنه أن احفر طيبة، فاستيقظ من نومه، ثم غلب عليه النوم فسمع للمرة الثانية أن احفر برة، فاستيقظ ثم غلب عليه النوم فسمع للمرة الثالثة احفر المضنونة، ضننت بها على الناس إلا عليك، بنقرة الغراب الأعصم، وإنها بين الفضرْث والدم، وعند قرية النمل، إنها لا تنضب أبداً.

فلما قام ليحفرها رأي ما رسم له من قرية النمل، ونُقْرة الغراب، ولم ير الفَرْث والدم، فبينما هو كذلك نَدَّت بقرة لجازرها فلم يدركها حت يدخلت المسجد الحرام فنحرها في الموضع الذي رسم له، فسال هنالك الفرث والدم، فحفر عبد المطلب حيث رسم له، وقد عثر على غزالين من الذهب كانتا مهداتين من الفرس للكعبة، وكان قد دفنهما الحارث بن مضاض.

وذكر الزهرى أن عبد المطلب اتخذ حوضاً لزمزم يستقي منه، وكان يخرب بالليل حوله، فلما غمه ذلك، قيل له في النوم، قل : لا أحلها لمغتسل، وهي لشارب حل وبل، وقد كفيهم، فلما أصبح قال : نعم، وكان بعد من أرادها بمكروه رمى بداء في جسده حتى انتهوا عنه، والملمون يعتقدرون في ماء زمزم البركة، وقد كانوا يحملونه إلى بلادهم بعد الحج؛ لإهدائه إلى أصدقائهم وأقاربهم ويعدون ذلك من أفخر الهدايا، ولكن إدارة (الكورنتينات) تمنع دخول

(١) مسالك الأبصار ج١.

الحجاج في عرفات يدعون الله

obeikandl.com

الماء زمزم إلى البلاد التي يفدها الحجاج.

وكان ماء زمزم يستخرج من زمزم بالدلاء الجلدية حسب العواذد القديمة. ولقد فكر جلالة الملك عبد العزيز (سنة ١٣٤٥هـ ١٩٢٧م) في الاستعانة بالآلات الحديثة لتكثير الماء وتوزيعه بطريقة صحية، وصيانة الحرم مما يتعرض له في موسم الحج من الازدحام والمخاصمة ، وما يتبع ذلك من فقدان النظافة ، فزمر جلالته في تلك السنة بتركيب آلة رافعة للماء، وأحضر مهندساً من مصر لهذه الغاية.

ولكن لما كان هذا العمل يؤثر في كسب طائفة الزمازمة والسقائين، وعملهم محصور في إخراج الماء بالدلو من البئر وتوزيعه على الحجاج، ولا يرضى الجامدين الذين لا يرضون بجديد ولو كان نافعاً، قامت قيامتهم ضد هذا المشروع النافع. ولقد ابتدأ العمل بالفعل وجرى الحفر بالحرم لوضع الأنابيب، وأرسل إلى مصر لشراء الآلة والأنابيب والأحواض الكبيرة التي يوزع منها الماء، وأخيراً أثار الزمازمة أهل نجد وألبسوا عليهم الأمر، وأن بئر زمزم سينضب ماؤها بعد تركيب هذه الآلة الرافعة، ولا شك أن هذا العمل سيجلب عليهم سخط المسلمين، فألَحَّ أهل نجد المقيمون بمكة على الملك بإلغاء هذا المشروع، وإبقاء القديم على قدمه، حتى لا تجرى هذه المصيبة في أيامهم. فلم ير الملك من المصلحة إغضابهم، في هذا الوقت الذي بدأت فيه حركة الإخوان، فأمر بإيقاف المشروع والعدول عنه.

ولقد حاول حاكم بهوبال أن تمنحه الحكومة امتياز تعبئة ماء زمزم في زجاجات كما تفعل بعض البلدان الأخرى ويقوم بتصديرها بعد تعقيمها على أن يتقاسم الأرباح مع الحكومة، ولكن الحكومة رفضت الاقتراح لأن علماء نجد لم يوافقوا على المشروع.

ولعل الحكومة تقوم هي نفسها بنفس المشروع فإن كثيراً من الحجاج يودون أن يحملوها معهم لأنفسهم ولأصدقائهم.

بيوت مكة:

ولقد كان في مكة كثير من الآثار التاريخية مثل : مولد النبي، بيت خديجة، بيت أبي بكر، وغيرها من الآثار. ولكن الإخوان هدموا هذه الآثار، مع ما هدموه من القباب والقبور ، لأن هذه الأماكن اتخذت مصدراً لابتزاز أموال الحجاج، فسداً للذريعة أزالوا كل أثرها. ويقول المؤرخون للحركة السعودية الأولى : إن مكة والمدينة أثناء الحكم السعودي في القرن التاسع عشر الماضي، قد أزيل منهما كل الآثار التاريخية التي كان يتبرك بها الحجاج.

وبيوت مكة من الحجارة، وهي في نظافتها خير من سائر بيوت جزيرة العرب؛ غير أن نظام المراحيض لا يتبع النظام الصحي. وعقد عمل سلاطين الأتراك مجرى كالمجاري التي تعمل في المدن، ولكنه ليس عامًا من جهة، وغير واف تماماً من الوجهة الفنية.

ونظام الشرب على الطريقة القديمة؛ فالسقاءون هم الذين ينقلون الماء إلى البيوت، إما بالقِرَب أو صفائح الغاز.

.كة كالبصرة والقَطِيف في كثرة البعوض، ولكنه من النوع الذي لايحمل جراثيم الملاريا، كما هو الحال في بعض المدن الحجازية الأخرى، ولم تعمل إدارة الصحة أو البلديات حتى الآن عملاً جدِّياً لإبادته؛ فلعل هذه الإدارات تشمر عن ساعد الجد وتقوم بحملة عنيفة لتخليص البلاد من هذا العدو الخبيث؛ ولاشك أن جلالة الملك سعود ذا الهة القعساء يكون أكبر معوان للعاملين ، وقد قامت وزارة الصحة بالفعل بجهد مشكور.

ومكة مملوءة بالحمام لحرمة صيده وتَجد في الحرم منه أسراباً أسراباً، وهو يشبه في إلفه للناس أنواع الطيور التي توجد في الحدائق العامة في أوروبا. وكثير من الحجاج يعتقد أن من مكمِّلات الحج تقديم الحبوب لحمام الحرم؛ كما أن الكثير من الناس يعتقد بأن الحمام لايعلو الكعبة، ولايقف على سطحها، ولا يقذرها. أما المسجد ولاسيما الأروقة المحيطة به، فكلها أعشاش للحمام، ولا يخلو حاج من أن يصل إليه شيء من أقذار الحمام، ويعتقد بعض الجهلة أن من أصابه شيء من أقذار الحمام سيكسى كسوة جديدة، وهي تعزية لطيفة!

وأهل مكة والمدينة يعنون بنظافة بيوتهم، كما يعنون بنظافة أبدانهم وملابسهم أكثر من سواهم من سكان جزيرة العرب. ويعيش أهل مكة على ما يكسبونه من وفود الحجاج، وهو مصدر خير عظيم إذ كثر الحجاج، أما إذا قلّ عددهم فلا يتصور أحد ما يعانيه هؤلاء من صنوف الضيق .

لقد أولى المسلمون عنايتهم بمكة والحجغز وأهله عناية عظيمة في القرون الأولى والوسطى ، فلا تزال عين زُبَيْدَة وغيرها من العيون ناطقة بتلك المكرمة التي أسداها أهل الخير لسكان البلاد المقدسة والوافدين.

وكان الخلفاء والسلاطين يولون الحجاز عنايتهم فكانوا يمدّونه بالصدقات والأوقاف على اختلاف أنواعها، مما لايزال بعضه باقياً حتى الآن؛ ولكن بلغ الإهمال بالمسلمين في القرون الأخيرة ما جعل الحجاز في مستوى أقل مما يجب له من النايةِ والإجلال؛ فالمسجد الحرام الذي يؤمه المسلمون من كل ناحية ليس في جمال مساجد الآستانة والقاهرة والهند .

ولكن الحكومة العربية السعودية قد أدركت هذا فقامت ببناء الحرم المكي وتوسعته وإدخال المسعى في الحرم وشق الطرق مكة ورصفها؛ وهو مشروع

زي من أزياء النساء في مكة

obeikandl.com

عظيم سيخلد اسم الملك سعود وحكومته في سجل المصلحين العاملين على إصلاح أرض الحرمين وتوفير وسائل الراحة لحجاج بيت ا الحرام وزوار مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ويجب أن نذكر هنا أن وزارة الصحة تقوم بمجهود عظيم في المحافظة على الصحة العامة ومقاومة الأمراض مقاومة فعالة . ولكن من واجب الحجاج أيضاً مساعدة الحكومة العربية السعودية في تسهيل القيام بواجبها، ولعل العلماء في مختلف البلاد الإسلامية يرشدون الحجاج إلى ما يجب عليهم عمله من مساعدة الحكومة العربية السعودية في القيام بواجبها. وا يهدي من يشاء إلى سواء السبيل.

ومدينة مكة في طرقها ومبانيها ونظامها الصحي ليست كالقاهرة أو دمشق أو بغداد، وهذا التقصير تقع تبعته على المسلمين عامة، وعلى الحكومة التركية التي حكمت البلاد قروناً عديدة؛ ولا شك أن أشراف الحجاز يتحملون قسطاً من التبعة، لأنهم كانوا الحكام الحقيقيين لمكة؛ فقد كان بوسعهم، لو كانوا ذوي بصائر نافذة، وعقول راجحة، وعلم بتطورات العالم، أن يجعلوا الحجاز وسكانه في مستوى خير من مستواه الحالي، ؛ ولكن الأشراف سلطوا مطامعهم على الحجاج وعلى سكان بلد ا الحرام، وحالوا في كثير من الظروف دون ترقية البلاد. ولسنا نرمي فئة خاصة من الأشراف، فإن الأشراف الذين حج في أيامهم الرحّالة ابن جبير في القرن السادس، وابن بطوطة بعده، كانوا مثل أشراف القرون الأخيرة.

ولكن جلالة الملك سعود وحكومته أدركت هذا قامت ببناء المسجد الحرام وتوسعته بحيث لا يقل فخامة وعظمة عن أي مسجد من المساجد في العواصم

الإسلاميـة الأخرى، وقد تم القسم الأول من البناء كمـا هدمت حوانيت المسعى وأدخلت المسعى في الحرم بحيث يقوم المسلم بأداء واجبه بدون أن يعترض طريقة مار أو يقطع عليه خشوعه صخب الناس وصياحهم.

وسيخلد هذا العمل الجليل عصر الملك سعود بن عبدالعزيز فإن مكة المكرمة، بعد شق الطرق فيها ورصفهـا وقيام وزارة الصحة والبلدية مما تنويه من إصلاح، ستكون كأخواتها.

الرقيق في مكة:

كانت مكة أكبر سوق للرقيق في جزيرة العرب، وكان العرب يحرصون على شراء الجواري والعبيد منها، لأن لأهل مكة عناية خاصة بتربية الجواري والعبيد، وتمرينهم على الخدمة المنزليـة، وقد تتجاوز قيمـة العبد ستين جيهـاً والجارية مائة وعشرين جنيهاً، وأفضل العبيد الجواري المجلوبين من الحبشة، لأنهم أخلص في الخدمة وأوفى لسادتهم.

والرقـيق الذي يرد للحـجـاز وجزيرة الـعرب، هو الغـنيمـة من الغـزوات والعارات في بلاد الحبشة الواسعة الأطراف. فـالتجار يشترون الرقيق هنالك من الغزاة، ثم يجلبونه إلى بلاد العرب بوساطة السَنَابِيك[1] إلى السواحل العربية، وبالرغم من مطاردة هؤلاء التـجار، وإنـزال أشد العـقوبات بمسـاعديهم، فـإن التـجار لا يزالون يُغـامرون في هذا النوع من التـجارة. والغـالب شراء الرقـيق للخدمة المنزليـة أو الخدمة في البساتين، وقد تشتـري الجواري لأغراض أخرى، وهذا على الأكثـر في عسير. وأمـراء العرب يكثرون من الرقيق رجـالا ونساء، فالرجال للخدمـة على اختلاف أنواعها وللحراسة الخاصـة، والجواري للخدمة

(١) نوع من السفن الشراعية.

المنزلية وغيرها .

على أن تحـرير الرقيق من ألأعـمال المحـبوبة شـرعا، والتي لا يزال الـعرب يعدونها من أفـضل القربات إلى ا ، فقلما يموت أحـد ولا يوصى بتحرير بعض عبـيده وجواريه من شيء من المال يسـاعدهم. وفي الغالي يفـضل الرقيق الذي يحرر أن يبقى في بيت أهله ويأبى أن يغادر من عاش في كنفهم.

لقد جرت محاولات لإبـطال الرق في بلاد العرب. ففي سنة ١٢٧٢ هجرية أمرت الدولة العـثمانيـة بمنع الرقيق، فحـصل هرج ومرج بمكة، جـعل الحكومة التركية تعدل عن أمرها.

وفي أيام الملك حسين جـرت مخابرات بينه وبين الحكومة البـريطانية لإبطال سوق الرقيق في الحجاز، ولكن الملك حسـيناً كان يحتج بزن الرقيق ليس مصدره مكة، فإن امتنع وروده إلى الحجاز بالتدريج.

وفي معاهدة جـدة سنة ١٣٤٥هـ ١٩٢٧م احتفظت الحكومة البـريطانية بحق تحـرير كل من يلجأ إلى دار قنصلـيتـها، وقـد أدى هذا الالتجـاء إلى سلسلة من الأزمات. وفي سنة ١٣٥٥هـ -١٩٣٦م تنازلت الحكومة البريطانية عن هذا الحق أملا أن تقـوم الحكومة العـربية السعـودية بمنع الاتجار بالرقـيق والسعي لتـحرير الرقيق القديم بالتدريج.

ومما يؤسف له أشـد الأسف أن تصـبح البلاد العـربيـة الوحيـدة من بين دول العالم في التـمسك بالرق وهي البـلاد التي نادت بالحض على تحرير الرقـيق قبل ثلاثة عشـر قرناً. فهل لنا أن نرى في حـياتنا رجلا شـجاعا مـثل إبراهيم لنكولن ينادي بتحرير العبيد وتحريم الاتجار به؟ إن ذلك ليس على ا بعزيز.

والمسألة في الواقع اقتصادية، فلو أن الخدم يتوفرون في مكة وبلاد العرب ما لجأ الناس إلى الرقيق، ولكن أهل مكة يفضلون خدمة الحجاج، لأنها تدر عليهم من المال ما لاتدره عليهم الخدمة الأخرى، وقلما نجد خادماً في مكة للخدمة المنزلية.

وأعتقد أنه ليس في آمكان أية حكومة أن تأمر بإلغاء الرقيق، وتحرير العبيد في جزيرة العرب دفعة واحدة، فإن ذلك قد يؤدي إلى ثورة أهلية، ولكن إذا قضى على التجار في السواحل العربية ضعفت في الداخل . وعلى كل حال فإن الرقيق يتناقص عدده في كل سنة، وسيقضي عليه لا محالة. ومن الغريب أن بعض الأوروبيين في إقامتهم في بلاد العرب تصل إليهم عدوى الرقيق، فيحوزون الرقيق كغيرهم من العرب ويستعملونه في الوجوه التي يستعملها فيه العرب.

منع غير المسلمين من دخول الحجاز:

لقد جرى العرف على ألا يدخل البلدين المقدسين: مكة والمدينة غير المسلمين. ومنشأ هذا ما روى عن ابن عباس أنه سمع رسول ا صل الله عليه وسلم يقول مرض موته : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب. وأن عمر سمع الرسول ﷺ يقول : لزخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلما. وأن عائشة زوج النبي # قالت: آخر ما عهد النبيﷺ أنه قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان، وأن ابن عمر قال : إن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز، وإنه أجلى يهود خيبر إلى تيماء وأريحيا وحكى الحافظ ابن حجر في الفتح في كتاب الجهاد، أن الذي يمنع منه المشركون من جزيرة العرب هو الحجاز خاصة، وهو مكة والمدينة واليمامة وما والاها، لا ما سوى ذلك مما يطلق عليه جزيرة العرب. لاتفاق الجميع أن اليمن لا يمنعون منها

مع أنها من جـملة جزيرة العرب. وعن الحنفـية يجوز مطلقاً إلا المسـجد. وعن مالك يجوز دخولهم الحرم للتجارة . وقال الشافعي: لا يدخلون الحرم أصلا إلا بإذن الإمام لمصلحة المسلمين.

وذكر ي المغنى أنه لا يجوز لغـير المسلمين دخول الحرم للتجـارة. وبهذا قال الشافعي. وقال أبو حنيفة : لهم دخـوله كالحجاز كله، ولايستوطنون به، ولهم دخول الكعبة. والمنع من الاستطان لايمنع الدخول والتصرف.

وذكـر صاحب المـغنى أيضاً أنه يـجوز لهم دخـول الحـجاز لـلتجـارة، لأن النصارى كانوا يتجرون إلى المدينة في زمن عمر.

ويؤيده ماورد في كتاب أخبار مكة للأزرقي ما نصه :

« . . . . . وأخبرني جـدي قال : أول من عمل القبـة التي بين زمزم وبيت الشراب المهدى في خلافته، عملهـا لهم أبو بحر المجوسي النجار، وكان جاء به عيسى ابن علي بن عبدا بن عباس رضي ا عنه إلى مكة من العراق».

وما ورد في تاريخ المدينة للمطري:

«. . . . . وأرسل الوليد إلى ملك الروم فقال: إنا نريد أن نعمـر مسجد نبينا الأعظم، فأعنّا بعمال وفـسيفسياء. فبعث إليه بثـمانين عاملاً : أربعين من الروم وأربعين من القبط، وثمانين ألف مثقال، وبأحمال من الفـسيفسياء وبأحمال من سلاسل للقناديل».

وقد وضـعت الحكومة الحـالية تشريعـاً، من مقتـضاه ألاّ يدخل الحـجاز من يدخل في الإسلام إلا بعد مضي سنة على إعـلان إسلامه، منعاً لبعض الأوربيين الذين يدّعون الدخول في الإسلام بقصد زيارة مكة أو المدينة فقط.

الطائف :

هي مدينة مسورة واقعة في سهل رملي محاطة بتلال منخفضة، وتقع على بعد ٧٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة، على ارتفاع خمسة آلاف قدم من سطح البحر؛ وهي مصييف الأعيان ورجال الحكومة، وبيوتها مبنية من الحجر؛ والمدينة تغص بالسكان زمن الصيف فقط، وجوّها أبرد بكثير من مكة، والمياه فيها غزرة، وهي في جوها وتربة أرضها تشبه الأراضي العالية في عسير واليمن. والأمطار الغزيرة تسقط هناك في فصل الخريف، والآبار كثيرة، ومنها تروى الأراضي الزراعية البعيدة عن مجاري المياه.

يبلغ عدد السكان نحو خمسة عشر ألف نسمة، وأغلبهم من ثقيف وعُتَيْبة، ويشتغلون بزراعة البساتين والخض. وفاكهة الطائف مشهورة بجودتها في سائر البلاد العربية، ففيها العنب والرمان والخوخ والليمون الحلو والمشمش والسفرجل. أما زراعة النخيف في الطائف فلا تجود لشدة البرد.

وينمو الورد في الطائف، ويستخرج منه عطر فاخر يباع على الحجاج في موسم الحج. وتقوم حكومة الملك سعود بشق الطريق الجبلي من الطائف إلى مكة مخترقاً عرفات فيقرب الطريق إلى مكة ويسهل الاتصال بين المدينتين.